الطِرِمَّاح بن حكيم الطائي

(١)

حياته

هو الطرماح بن حكيم بن الحكم بن نَفْر بن قيس بن جَحْدر الطائي . ويكنى ابا نَفْر وابا ضُبيبة . ينتهي نسبه الى طيئ . وبنو طيئ من العرب القحطانية كانت منازلهم باليمن فخرجوا منها بحادثة سيل العرم فنزلوا بنجد والحجاز على القرب من بني اسد ، ثم غلبوا بني اسد على جبلي أَجَأ وسَلمى من بلاد نجد فنزلوهما فعرفا بجبلي طيئ ، ثم افترقوا في اول الاسلام زمن الفتوح في الاقطار . ولهم بطون كثيرة في الشام والعراق [١]

كان نفر بن قيس أحد أجداد الطرماح شاعراً ذكر له ابو تمام الطائي في الحماسة هذين البيتين :

الا قالت بُهيشة مالنفرٍ أراه غيرتْ منه الدهورُ
وانتِ كذاكِ قد غُيرتِ بعدي وكنتِ كأنكِ الشعرى العبورُ

وكان قيس بن جحدر والدُ نفر ابنَ خالة حاتم الطائي أسره بعض ملوك بني جفنة بدمشق فدخل عليه حاتم فاستوهبه اياه وقال : [٢]

فككتَ عدياً كلها من اسارها فأفضل وشفعني بقيس بن جحـدرِ
ابوه ابي والأم من أمهاتنا فأنعم فدتك اليوم نفسي ومعشري

وقيس بن جحدر هذا وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم وورد اسمه في كتب طبقات الصحابة [٣]

والطرماح من فحول الشعراء الاسلاميين ولد ومات في العصر الاموي ، ولم

---

(١) صبح الاعشى للقلقشندي ج ١ ص ٣٢٠ وبلوغ الارب له ص ٢٦٦
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤٠ (٣) الاصابة في تمييز الصحابة ج ٥ ص ٣٤٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ينص احد ممن ترجم له من المتقدمين على تاريخ ولادته اووفاته ولكن بعض اخباره وأشعاره تعين على معرفة ذلك على سبيل التقريب .

ولد الطرماح في الشام ونشأ بها كما نص على ذلك كل من ترجم له دون ان يعينوا المدينة او القرية التي ولد بها . ولا يبعد ان يكون مولده حوالى منتصف القرن الأول لما سيأتي . ونحن لا نعلم من احواله وهو في الشام شيئاً بل جميع ماروي من أخباره كان بعد نزوحه عنها . ولكنه ظل يفخر بشاميته كما يفخر بقحطانيته قال :

ونجاك من أسد العراق كتائب لقحطان اهل الشام يوم استهلتِ
بهم ينصر الله الخليفة كلما رأوا نعل صنديد عن الحق زلتِ

وقال :

فبعزنا نصر النبي محمد وبنا تثبت في دمشق المنبرُ

وقال :

يماني تبوع للساعي يداه وكل ذي حسب يماني

وانتقل من الشام الى الكوفة مع من وردها من جيوش اهل الشام ، ولا يبعد ان يكون ذلك بعد سنة سبعين اذ قمع عبد الملك بن مروان بجيوش اهل الشام ثوائر العراق . وقد نكون غير مخطئين اذا قدّرنا ان الطرماح وقتئذٍ كان في العقد الثالث من عمره كأكثر الجنود عادةً . ونزل بالكوفة في تيم اللات بن ثعلبة وأخذ عن شيخ منهم مذهب الخوارج كما سيأتي . ولكن لم يرو عنه انه حارب مع الخوارج . وبالكوفة صحب الكُميت ابن زيد الاسدي الشاعر وتوثقت بينهما عرى الصداقة على اختلاف أحوالهما . قال صاحب الأغاني : « كان الكميت بن زيد صديقاً للطرماح لايكادان يفترقان في حال من احوالهما فقيل للكميت لاشيء اعجب من صفاء ما بينك وبين الطرماح على تباعد مابجمعكما من النسب والمذهب والبلاد هو شامي قحطاني (خارجي) وانت كوفي نزاري شيعي فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية ؟ فقال اتفقنا على بغض العامة » [1]

(١) انظر أيضاً البيان والتبين للجاحظ ج ١ ص ٥٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وذهب من الكوفة الى بلاد فارس وذكر عدة مواضع منها في شعره مثل بم وكرمان وفج الريح والقاقزان وقزوين قال :

ألا أيها الليل الطويل الا اصبح ... بمم وما الاصباح فيك بأروحِ
لئن مرَّ في كرمان ليلي فربما ... حلا بين تلي بابل فالمضيح

وقال :

طربت وشاقك البرق اليماني ... بفج الريح فج القاقزانِ
الم تر ان عرفان الثريا ... يهيج لي بقزوين احتزاني

وذكر الجاحظ في البيان والتبيين [1] ان الطرماح أقام بالري يشتغل بالتعليم .

وعاد الطرماح الى الكوفة واقام بها الى ان توفي . قال ابن شبرمة : « كان الطرماح لنا جليساً ففقدناه اياماً كثيرة فقمنا بأجمعنا لننظر ما فعل وما دهاه فلما كنا قريبا من منزله اذا نحن بنعش عليه مطرف اخضر فقلنا لمن هذا النعش فقيل هذا نعش الطرماح فقلنا والله ما استجاب الله تعالى له حيث يقول :

واني لمقناد جوادي وقاذف ... به وبنفسي العام احدى المقاذفِ
لأكسب مالاً او أؤل الى غنى ... من الله يكفيني عداتِ الخلائف
فيارب ان حانت وفاتي فلاتكن ... على شرجع [2] يعلى بخضر المطارف
ولكن قبري بطن نسر مقيله ... بجو السماء في نسور عواكف
وامسي شهيداً ثاوياً في عصابة ... يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألَّف بينهم ... تقى الله نزالون عند التزاحف
اذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى ... وصاروا الى موعود مافي المصاحف »

ويقول ابو هلال العسكري في جزء من كتاب التصحيف [3] ان الطرماح بقي بعد الفرزدق . والفرزدق توفي سنة اثنتي عشرة ومئة . فلا يبعد ان يكون مات بعده بقليل لأنه ليس في أخباره أو شعره ما يدل على انه عاش طويلاً بعد ذلك التاريخ .

(١) ج ٢ ص ٢٥٧ (٢) الشرجع النعش (٣) مخطوط ص ١٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يرو عن الطرماح انه اتصل بأحد من خلفاء بني أمية او مدحهم ولكنه مدح من أمراء العراق يزيد بن المهلب وهو قحطاني واشار الى مقتله يوم العقر سنة اثنتين ومئة بقوله :

كتائب من قحطان بالعقر اوقعت وقائع فيها أعظمت وأجلت

ومدح ابنه مخلد بن يزيد الذي توفي فتى في حياة ابيه حوالى سنة مئة[1] كما مدح خالد بن عبد الله القسري وهو قحطاني ايضاً (ولي العراق سنة خمس ومئة وقتل سنة ست وعشرين ومئة) وكان خالد يجله ويؤثره . ورد في الاغاني : ان الطرماح دخل على خالد فانشده قوله :

وشيبني ما لا ازال مناهضاً بغير غنى اسمو به وابوعُ
وان رجال المال اضحوا ومالُهم لهم عند ابواب الملوك شفيع
امحترمي ريب المنون ولم انل من المال ما اعصي به واطيع

فأمر له بعشرين الف درهم وقال امض الآن فاعص وأطع .

ومدح الطرماح خالداً فأقبل على العريان بن الهيثم وقال له : اني قد مدحت الأمير فأحب ان تدخلني عليه ، فدخل اليه العريان فقال له : ان الطرماح قد مدحك وقال فيك قولاً حسناً . فقال مالي في الشعر من حاجة . فقال العريان للطرماح تراءَ له . فخرج معه فلما جاوز دار زياد اذا شيءٌ قد ارتفع فقال يا عريان انظر ما هذا فنظر ثم رجع فقال : أصلح الله تعالى الأمير هذا شيءٌ بعث به اليك عبد الله بن ابي موسى من سجستان فاذا حمر وبغال ورجال وصبيان ونساء ، فقال يا عريان اين طرماحك هذا ؟ قال :هيهنا قال : اعطه كل ما قدم به . فرجع الى الكوفة بما شاء ولم ينشده .

ووقعت مهاجاة بين الطرماح وبين الفرزدق كان الطرماح موفقاً فيها كثيراً .

أما أهل بيت الطرماح فنعلم ان اسم زوجه سلمى فقد ذكرها في شعره كما ذكر أيضاً اسم ابنه صمصامة قال :

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٣٩٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أيا سلمَ ان ارجع اليك فربما رجعت وأمري للعدى غير مفرح
أحاذر يا صمصام ان مت ان يلي تراثي واياك امرؤ غير مصلح

وورد في الأغاني ان له ابناً اسمه صبيرة ولصبيرة هذا ولد اسمه يحيى روى عنه ابو عبيدة . ومن احفاد الطرماح امان بن الصمصامة بن الطرماح كان شاعراً نحوياً عالماً باللغة والشعر حافظاً للقريض وكان كاتباً عند المهالبة في افريقية فلما تولى افريقية ابراهيم بن الأغلب سنة أربع وثمانين ومئة وكان ينتسب الى بني تميم اطرحه لأن جده الطرماح هجا بني تميم [1]

ثقافته وصفته وأخلاقه

كان الطرماح واسع الرواية تعلم النحو وطلب غريب اللغة وعلّم الأدب وقد يكون اول من تثقف من الشعراء الاسلاميين على سبيل الطلب والدرس . وهو معدود في الخطباء الفصحاء كما هو معدود من فحول الشعراء . قال الجاحظ « ومن الخطباء الشعراء الطرماح بن حكيم الطائي وكنيته ابو نفر [2] » وقال ايضاً « وكان الكميت والبعيث والطرماح شعراء خطباء [3] » ولكن خطب الطرماح لاتزال سراً مكتوماً في صدر الزمان .

أما حسن تعليمه فقد قال الجاحظ ايضاً : « قال عبد الأعلى رأيت الطرماح مؤدباً بالري فلم أر احداً آخذ لعقول الرجال ولا اجذب لأسماعهم الى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده كأنهم قد جالسوا العلماء [4] »

وفي الأغاني [5] ان الكميت أنشد قول الطرماح :

اذا قُبضت نفس الطرماح اخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال اي والله وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة .

---

(١) مقدمة ديوان الطرماح عن معجم الادباء لياقوت ج٣ص ٣٦١ وبغية الوعاة للسيوطي ص ٣٠٠
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٤ (٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٧٢ (٤) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٥٧ (٥) ج ١٠ ص ١٤٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما وصل الينا من شعر الطرماح مع بعض أخباره يدل على استقامة وجد وحزم وتقوى شأن اكثر الخوارج ، فلم يكن يميل الى العبث واللهو بل يغلب عليه الجد والتصاون كما انه كان بعيداً عن مداراة الأمراء ومداجاتهم يرى نفسه اكبر من أن يقف بحضرة امير وينشده الشعر . قال صاحب الاغاني : « وفد الطرماح بن حكيم والكميت بن زيد على مخلد بن يزيد المهلبي فجلس لهما ودعاهما فتقدم الطرماح لينشد فقال له أنشدنا قائماً فقال كلا والله ما قدر الشعر ان اقوم فيحط مني مقامي وأحط منه بضراعتي وهو عمود الفخر وبيت الذكر لمآثر العرب فقيل له فتنح . ودعي الكميت فأنشد قائماً فأمر له بخمسين الف درهم فلما خرج الكميت شاطرها الطرماح وقال له : أنت ابا ضبيبة أبعد همةً وانا ألطف حيلةً »

والطرماح مع علو همته وأنفته فخور تياه يفخر بنسبه ونفسه ويتعصب للقحطانية على العدنانية ويعتز بقبيلته واسلاميته وشآميته ، وأشعاره في ذلك غير قليلة . قال صاحب الأغاني : « مرّ الطرماح في مسجد البصرة وهو يخطر في مشيته فقال رجل من هذا الخطار فسمعه فقال انا الذي أقول :

لقد زادني حباً لنفسي انني ... بغيض الى كل امريءٍ غير طائل
واني شقي باللئام ولا ترى ... شقياً بهم الا كريم الشمائل
اذا ما رآني قطع الطرف بينه ... وبيني فعل العارف المتجاهل »

مذهبه

« لما ذهب الطرماح من الشام الى الكوفة نزل في تيم اللات بن ثعلبة وكان فيهم شيخ من الشراة له صمت وهيئة ، وكان الطرماح يجالسه ويسمع منه ، فرسخ كلامه في قلبه ودعاه الشيخ الى مذهبه فقبله واعتقده اشد اعتقاد وأصحه حتى مات عليه » . هكذا يقول صاحب الأغاني . ويقول ابن جرير الطبري [1] ان القعقاع بن قيس عم الطرماح كان يرى رأي الخوارج . فلا يبعد ان يكون الطرماح كتم

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٤٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مذهبه وهو في الشام خوفاً من الخلفاء فلما ذهب الى الكوفة أعلنه . ويقول صاحب الأغاني انه كان يعتقد مذهب الازارقة من الشراة ويجعله الجاحظ [1] من الصفرية وكنتا الفرقتين من الخوارج وأصولها واحدة واختلافهما في الفروع غير ذي بال [2] والازارقة اكثر تشدداً والصفرية ألين جانباً . ولعل ما قاله الجاحظ هو الصحيح لأنه لم يرو عن الطرماح انه قاتل مع الخوارج بل مدح بعض امراء العراق من قبل بني أمية وذكر خلافتهم بخير . وشعره يدل دلالة واضحة على انه يعتقد مذهب الخوارج اصح اعتقاد من ذلك قوله :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له ان لم أفز فوزة تنجي من النارِ
والنار لم ينج من روعاتها أحد الا المنيب بقلب المخلص الشاري

وقوله :

لله در الشراة انهم اذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجعون الحنين آونةً وان علا ساعةً بهم شهقوا
خوفاً تبيت القلوب واجفةً تكاد عنها الصدور تنفلق
كيف ارجي الحياة بعدهم وقد مضى مؤنسيَّ فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم بالفوز مما يخاف قد وثقوا

ولكنه لم يكن خشناً ولا متزمتاً وصداقته للكميت بن زيد الشيعي دليل على دماثته ولين جانبه .

شعره

الطرماح من فحول الشعراء الاسلاميين تغلب عليه الجزالة حتى تنتهي به في كثير من شعره الى الغريب والمويص ، ويظهر على شعره أثر الاسلام والايمان بما أتى به والرغبة فيما دعا اليه والخوف مما نهى عنه فهو من هذه الجهة يشبه الفرزدق ويزيد عليه بالجد والتصاون وخلو شعره من العبث والمجون والغزل الفاحش .

تقرأ شعر الطرماح فترى نفس شاعر فارس جم المروءة حمي الأنف كبير النفس

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٦ (٢) انظر كتاب الفرق بين الفرق ص ٦٢ و ص ٧٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حسن الايمان لا يكاد يصرف شعره في سبيل التكسب والزلفى بل يرسله معبراً عما يختلج في نفسه من بواعث الشعر فيصف ويتغزل ويفتخر ويهجو ويرسل المثل وينطق بالحكمة والموعظة . وتكاد تكون جميع قصائده الطويلة من هذا النوع لم يمدح بها أحداً ولم يرث بها أحداً قاطا لوجه الشعر فشغل نفسه في زمن كثر فيه المداحون المستجدون

أما وصفه فهو أشبه بوصف شعراء الجاهلية يصور البادية وحياتها وطبيعتها ومافي أرضها وسمائها على انه حضري نشأ في الشام ودخل بلاد فارس وأقام بها ولكن إلهام البادية في وصفه أظهر وعزيف جنها اوضح يعبق فيه الشيح والقيصوم ويلمع السراب وترغو الابل وهو في جملته وصف دقيق فيه حياة متحركة يتناول الدقيق والجليل ولكن غرابة اللغة في كثير منه تجعله غريباً عن الأذواق .

وأما غزله ففيه حنين يبعث الحنو وتشوق يثير الوجد ولوعة تتنزى وعاطفة شريفة يرسله أنفاساً حرى من غربته في بلاد فارس الى سلمى التي ملكت قلبه وشغلته عمن سواها ، وسلمى هذه هي امرأته وما أعجب قوله فيها :

كأن فؤادي بين أظفار طائر ... اذا سنحت ذكراكِ من غير مسنحِ
وذكراكِ ما لم تسعف الدار بيننا ... تباريح من عيش الحياة المبرح
أيا سلم ان ارجع اليك فربما ... رجعت وامري للعدى غير مفرح
أصمصام ان تشفع لأمك تلقها ... لها شافع في الصدر لم يتبرح
هل الحب الا انها لو تعرضت ... لذبحك يا صمصام قلت لها اذبحي

«وصمصامة هذا ابنه» ولا شك في ان الغربة ارهفت عاطفة حب الأهل والبنين والوطن في نفسه وجعلته مشفقاً من حوادث الزمان يخشى ان تغتاله المنية وهو بعيد عنهم قال :

أحاذر يا صمصام ان مت أن يلي ... تراثي واياك امرؤ غير مصلحِ
اذا صك وسط القوم رأسك صكة ... يقول له الناهي ملكت فأسجح
وناصرك الأدنى عليه ظعينة ... تميد اذا استعبرتَ ميد المرنح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مفجعة لا دفع للضيم عندها سوى سفحان الدمع من كل مسفح
اذا جئتها تبكي بكت وتذكرت مع الحزن صولات امرئ غير زمح

وأما فخره فمن ابواب شعره الجيدة ينم على اعتداده بنفسه وزهوه بها وافتخاره بفضائله الخاصة وكرم قبيلته ومآثرها واحتقاره للطبقة الدنيا من الناس وعدم احتفائه بالعامة وما أعرف فخراً احلى عنجهية من قوله :

« لقد زادني حباً لنفسي أنني » الأبيات

يتبع

خليل مردم بك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net